كلاوس كرايزر

Klaus Kreiser

حروف مكتوبة بالذهب

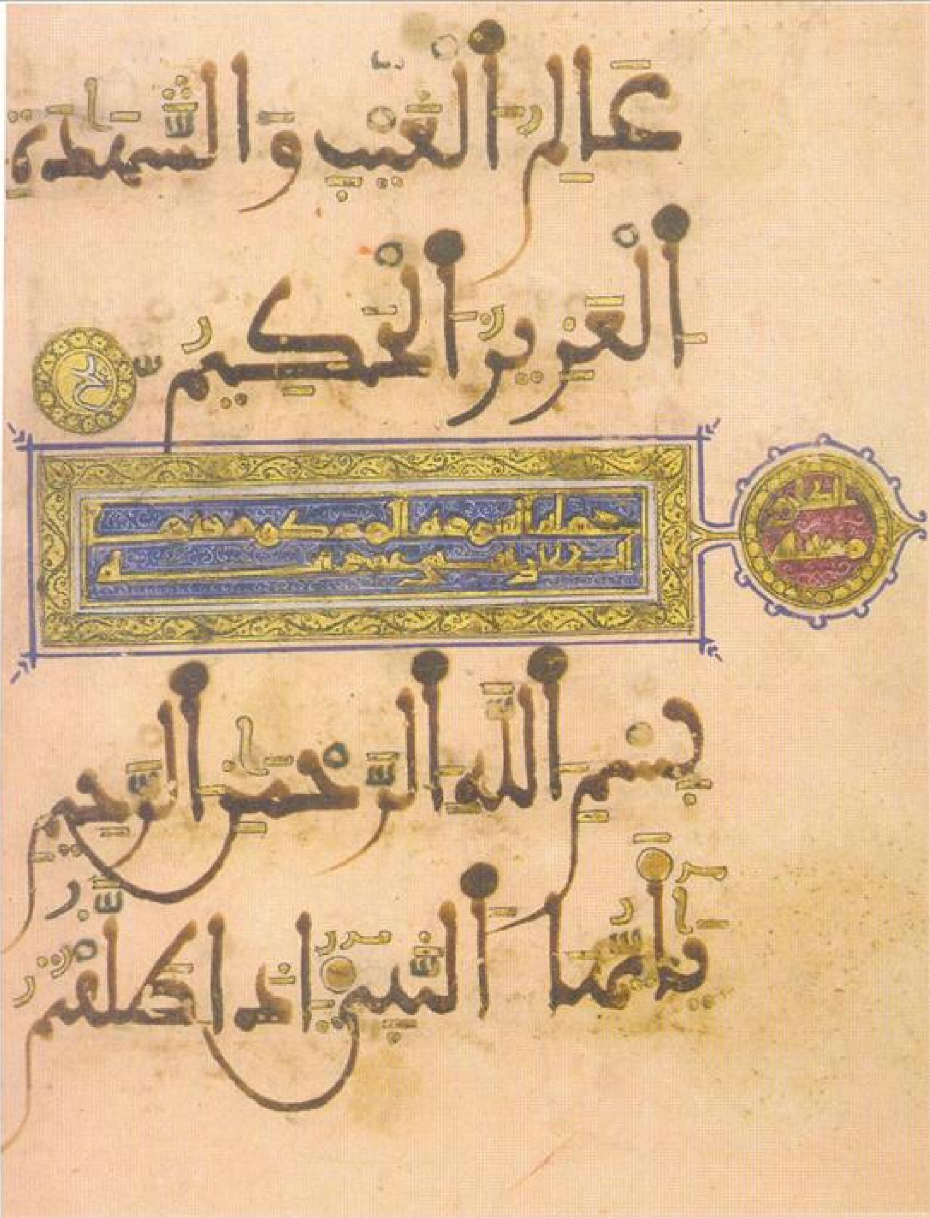
مخطوطات نادرة في متحف الفن الإسلامي في برلين

انتقلت صناعة الورق، المكلفة مادياً، من الصينيين إلى العرب في القرن الثامن بعد الميلاد. ومع هذا، وما خلا حالات متفرقة، ظل العرب في العراق ومصر واليمن يكتبون القرآن على الرق، فقط، حتى القرن العاشر. وكانت هذه المصاحف تتكون من ثلاثين إلى ستين جزءاً وتتسم بوزن ثقيل لا يستهان به، لا سيما أن الصحيفة الواحد لم تضم سوى بضعة سطور لا غير. وأغلب الظن أن هذه المصاحف كانت تُنسخ، فقط، كمراجع يرجع إليها الفقهاء أثناء تدريسهم علوم الدين في المساجد.

وخلافاً لتوراة اليهود، المطوية على هيئة لفائف، وأناجيل المسيحيين، كانت أولُ نُسخ القرآن مستطيلةً أو مربعةَ الهيئة. وحظيت أسماءُ السُوَر وأرقامُها ـ وهي إضافات تختلف عن السُوَر من حيث أنها لا تعتبر جزءاً من الكلام الموحى به من الله ـ بأعظم اهتمام فني وأكبر رعاية زخرفية. على صعيد آخر كانت المصاحف المستنسخة في عصور الإسلام الأولى تجسد عملاً فنياً رائعاً مستوحى من الأشكال الهندسية التجريدية ومن النباتات وعروقها.

نوادر

يعطي المعرض الاستثنائي "الحبر والذهب ـ روائع فن الخط الإسلامي"، المقام في صالات معرض الفن الإسلامي في برلين، لمحةً عن «السيرة الذاتية» للمخطوطات القرآنية التي جرى استنساخها في عصر مبكر، وعن أعمال فنية دنيوية الطابع والمقصد تركها لنا كبار الخطاطين. وباستثناء قطعة واحدة فقط، فإن كافة القطع الأخرى المعروضة نوادر مستعارة من مَعْرض سام فوج Sam Fogg في لندن. فقد أُضيفت إلى المخطوطات المستعارة من إنجلترا صحيفة واحدة، يتيمة في نوعها، تعود إلى «مجموعة دافيد David Collection» في كوبنهاغن. وتعود هذه الشذرة إلى القرن السابع الميلادي، أي أنها نُسخت بعد جيل أو جيلين من وفاة النبي محمد. بهذا فإنها تعطي المرء لمحة دقيقة عن الصورة التي كانت عليها المخطوطات القرآنية في



قرآن بالخط المغربي
على ورق من الجوز
متحف الفن الإسلامي، برلين
Ink and Gold. 14 July - 31 August 2006

البدايات الأولى من العصر الإسلامي؛ فهذه المخطوطات كانت مكتوبة بخط كان تجار مكة قد درجوا على استخدامه في كتابة عقودهم التجارية، ولم يكن يتصف بعناصر جمالية تستحق الذكر.

وبعد مضي قرن من الزمن على استنساخ هذه المخطوطة الخالية من التزويق والرقش والمكتوبة بحبر بني، كَلَفَ أحدُ المولعين، وربما الخليفة نفسه، أحدَ الخطاطين بأن يكتب القرآن، من أوله إلى آخره، بماء الذهب وأن يملأ الفراغات في كل صفحة بزخارف منقوشة بماء الذهب

أيضاً. وحتى عام ١٧٥٦ كانت هذه المخطوطة، المكونة من جزأين، في حوزة مكتبة تابعة لأحد مساجد اسطنبول؛ وكان الجزء الثاني منها قد جرى نقله، من ثم، إلى خارج البلاد. وظهر هذا الجزء للعيان، ثانية، عام ١٩٠٤ في الولايات المتحدة الأمريكية؛ وكان مجهولون قد انتزعوا منه بضع صفحات. ومهما كان الحال، فقد أعيد هذا الجزء إلى تركيا في عام ٢٠٠٠.

كما نال «قرآن الحاضنة» شهرة واسعة، وكان الجزء الأعظم منه موجوداً في مدينة القيروان التونسية. وعبارات الإهداء الموجودة على صفحات هذه المخطوطة تشهد، بنحو أكيد، على أن تاريخ استنساخها قد كان بين عامي ١٠٩١ و ١٠٢٠م. وليس المهتمون ومحبو الفنون وحدهم، من يقدرون القوة التعبيرية التي انطوت عليها مطاوعة ولدونة الخط الذي كُتِبَت به هذه المخطوطة. كما وتُعرض في برلين صفحة مستلة مما يسمى بـ «المصحف الأزرق» الذي كثر الحديث عنه. فجمال هذه الصفحة يثير الانبهار والعجب فعلاً. ويعود تاريخ هذه المخطوطة، المستنسخة في المغرب العربي، إلى القرن التاسع. ويقارن ماركوس فريزر Marcus Fraser، المشرف على كتابة فهرس المعرض، هذه المخطوطة بنسخة الإنجيل الأرجوانية اللون المستنسخة حوالي عام ٦٠٠، والتي تعود ملكيتها إلى كاتدرائية مدينة روسانو Rossano في مقاطعة كالابريا الإيطالية. ويؤكد فريزر على أن الشخص الذي كلف الخطاط باستنساخ «المصحف الأزرق» لم يحذو حذو أقدم الأناجيل المكتوبة باللغة القوطية وبحروف فضية اللون مدونة على رق أرجواني فحسب، بل كان يتطلع، باختياره الذهب للكتابة، إلى أن يبز «المخطوطة الأرجوانية Codex Purpuresu» أيضا.

إلا أن استنساخ القرآن على الرِق ما كان مقدراً له أن يستمر طويلاً؛ فقد أمسى الاستنساخ على الورق ينافس الاستنساخ على الرِق منافسة شديدة. ففي القرن الحادي عشر كان ثمن الورق في بغداد بخساً بحيث أن أحد السائحين الإيرانيين اشتكى من أن التجار يغلفون بضائعهم بالورق. وهكذا تحول المرء في الغرب، أيضاً، صوب الورق وراح يستنسخ القرآن عليه. فمن بين التحف المعروضة، ثمة صحيفة ورقية جرى استنساخها بلون الخوخ في غرناطة أو بلنسيه في القرن الثالث عشر.

المصحف في متناول الجميع

وكان «اختراع» الخط النسخي، المتميز بسهولة كتابته ويسر قراءته، وما صاحب هذا الاختراع من انتشار المصاحف الزهيدة في كلفة الإنتاج، قد جعل من القرآن، لأول مرة في تاريخ الإسلام، كتاباً في متناول الجميع. وبالتالي فلم تعد هناك ضرورة تحتم على المرء أن يذهب إلى الجامع بغية دراسة النصوص القرآنية وحفظها عن ظهر قلب. وفي الندوة المخصصة لافتتاح المعرض أعرب روبرت هيلنبراند Robert Hillenbrand من مدينة اينبورغ عن فكرة مفادها أن خطاطين من أمثال ابن البواب (المتوفى بحدود عام ١٠٠٢) وصحبه من الخطاطين قد استطاعوا، من خلال توافرهم على مادة أولية زهيدة الثمن (الورق) وخط يفي بكل ما هو مطلوب (الخط النسخي) والتحول صوب إخراج المصاحف بحجم صغير، أن يخلقوا الشروط الضرورية لأن يجري تداول القرآن بنحو واسع وعريض وأن يتم أداء الشعائر الدينية بلا حاجة للذهاب إلى الجامع لقراءة القرآن فيه. ومع إن هذا الخط اللين، المطواع، أعني الخط النسخي، ليس سوى خط واحد من جملة الخطوط الكثيرة التي ابتكرها تلامذة الخطاطين الكبار؛ إلا أنه استطاع، مع هذا، أن يبز باقي الخطوط وأن يحتفظ لنفسه بمكانة الصدارة على مر القرون؛ من هنا لا عجب أن يصبح هذا الخط الأساس الذي تفرعت عنه الخطوط العربية الكثيرة المستخدمة في المطابع وفي أجهزة الكمبيوتر حالياً.

وهناك صحيفة غاية في الروعة والجمال مستلة من مصحف تحتفظ بصفحات منه عشرة أماكن موزعة على مختلف البلدان، على أدنى تقدير؛ ويذكرنا تبعثر صفحات هذا المصحف بالمصير الذي آلت إليه مخطوطة سيناء Codex Sinaiticus. ومن حقنا أن نسأل ها هنا عما إذا كانت المخطوطات المعروضة في متحف الفن الإسلامي ببرلين ستنال الاهتمام الذي تحظى به مخطوطة أرغينتويس Codex Argenteus في مدينة أوبسلا السويدية Uppsala فيحج إليه زوار يعرفون قيمة التحف الفنية المعروضة فيه؟ ومهما كان الحال، فالمعرض يبين بكل تأكيد أن هذا الكتاب المقدس، أعني القرآن، قد انطوى على تاريخ حافل، حتى وإن لم تتغير فيه، لا نقطة ولا فاصلة واحدة، منذ جرى تدوينه في عصر الخليفة عثمان بن عفان (٦٤٤ ـ ٦٥٦).

ترجمة: عدنان عباس علي

نقلاً عن صحيفة نويه تسوريشر تسايتونغ
Neue Zürcher Zeitung, Nr. 12.08.2006

عنوان المعرض:
"الحبر والذهب: تحف فنية إسلامية"
Ink and Gold:
Masterpieces of Islamic Calligraphy
مكان العرض:
متحف الفن الإسلامي في برلين.